شخصية

الاستاذ حبيب الزحلاوى

بقية ما نشر فى العدد الماضى

طائف من الإلهام البصير طاف فى ذهن كبير حكيم منا أن يدعونا إلى وليمة ... وما كاد الجمع المدعو يلتف حول مائدة ذلك الرفيق الداعى ، وهى تماثل فى الشكل لا فى النوع الموائد التى كانت تنشر وتطوى على عجل فى ميادين القتال ، حتى انبسطت أسارير كل نفس ، وابتسم كل ثغر ، وارتسم السرور على كل محيا ، ونصع كل جبين ، ولا أقول «اختفى» بل أقول «تبرقع» الأكفهرار والتجهم والتوجس ؛ كأن حدسا لدنيا شاع فى كل نفس يهمس أن خلف الصفاء فى موسم الشتاء سحبا وبروقا ورعودا مقبلة ، وقد بدت طلائع غيومها حين وقف رب الدعوة يرحب بالمدعوين ويقول :

الشام أيها الإخوان ، بيت واحد تسكنه أسرة واحدة متفرعة كأغصان الشجرة ، والفروع الكبيرة فيها إنما هى قواعد ثابتة لعرش عربى ، وصولجان إسلامى ، تبذل الأرواح من أجلهما والمحافظة عليهما

لم تنطو المائدة على عجل كما كانت تنشر وتطوى فى ميدان الجهاد ، بل تجلت طبيعة الشامى على حقيقتها فى المباسطة والمزاح والنكتة ، وهى لا تختلف عما هو مفطور عليه من الرزانة والجد إلا فى الإمعان بالعمق ، والإمعان فى المثالاة ، والإمعان فى الإيلام . ودارت أحاديث ، وجرى عتاب ، وانجلت أمور ، واتضحت مسائل ، وانقشعت من ظلمات الغيوم وقائع ، وافتضح سر الدساس المنافق ، وبرز وجه إبليس بسمته المعهودة ، وحركة الرواء عنقه التقليدية ، وكاد إبليس الرجيم - عليه اللعنة المؤبدة - يقول « خذونى »

نظرت إلى وجه « حصل أفندى » هذا الشاعر الذى طالما وقف فى الناس منتصب القامة ، شامخ الأنف ، رافع الرأس ، ينشد القصيد فيطرب ، يتلاعب بالعواطف ، ويهز النفوس . لقد رأيته الليلة ذابل العين ، كسيف النظر ، منحنى الرأس ، كسير النفس ، ذليل الروح ، فتذكرت موقفا لشاعر معاصر وقف أمام إسماعيل صدقى ثم بين يدى مصطفى النحاس ، فتخيلته « حصل أفندى » وقلت إن هذا هو ذاك بمجره وبحره ، وعينه وميته ، بتفاقه وكذبه ؛ فرثيت لحال الشاعرين . نظرت إلى وجوه الرفاق فإذا بهم يخرجون على توقرهم لرب الدار صاحب الدعوة ، وعلى تقاليدهم فى الترفع عن الضعيف المهين ، والتعاظم على الذليل الحقير ، وكادوا يفتكون بذلك الشاعر الآثم ، وقد رأيت « حصل أفندى » حسان الثورة ، شاعر العرب والإسلام ، ينكمش ويتلعلم ويلصق جسمه بمقعده وسرعان ما وقف صاحب الدعوة ، ذلك الرجل الواسع الحيلة ، الذى رسم خطته بحكمة وتدبر وقال : ليس فينا من لم يقم بنصيبه فى قتال الأعداء ، ولذلك أقترح تشكيل هيئة حاكمة منكم كالتى كنا نشكلها فى ميادين الثورة لمحاكمة من يخرجون على مبادئها

لم يطل النائب العام كلامه فى بسط وقائع الجريمة لأن الخائن قد خانه دهاؤه وذكاؤه فاعترف بجريمته وعزا وقوعها إلى وسوسة الشيطان ، وطلب بذل وضراعة أن يكون مستقبل أولاده رهينة عند إخوان عرفوه فى حالتى قدرته على النفع وعلى الضرر

اتجهت الأنظار صوب رئيس المحكمة ، وتعلقت أنفاس اللئيم فى شفتى هذا الحاكم الذى لا مرد لحكمه ... وسرعان ما سمعناه يخاطب الجانى بقوله : ليس لى أن أدينك يا « حصل أفندى » بعد اعترافك . لقد كنت فيما مضى أستمد قوة حكمى من الخروج على القانون ، أما الآن فكلنا خاضع لأحكام القانون وليس فينا ، فيما أعتقد ، من يرضى بإدانتك والحكم عليك ، فلك وحدك أن تحكم على نفسك

توهمت أن يد الشاعر امتدت إلى مسدسه تنتزعه من جرابه لتفرغ منه رصاصة فى صدغه ولكن حصل أفندى كان فى شبه ذهول أو غيبوبة

علت الأصوات بالاحتجاج من كل جانب وقد أسكتها

الرئيس بإشارة منه وقال : تعرفون أيها الإخوان أنى أنا الذى أطلقت اسم « حصل أفندى » على صاحبنا هـذا الذى كنتم تقولون إنه شاعر العرب والإسلام وإنى حين كنيته تلك الكنية احتياطا وارتجالا لم أكن أتوقع أن الحوادث وتطوراتها سترفع القناع عن داء دفين ، وعلة لابدة فى نفس هذا الذى كان دائما فى مقدمة صفوف المجاهدين وقد انقلب فأضحى فى طليعة أجراء المستعمرين

ليس بيت ابن الوردى « لا تقل أصلى وفصلى » هو التعريفة الوحيدة فى هذه القصيدة التى تدل على سذاجة نفس ناظمها وتفكيره الضحل ، وهذا عيب شائع عند من يتشهدون بقول الشاعر احتياطا وبدون روية

لا أظن أن ابن الوردى كذاب منافق ، إنما المنافق الكذاب حقا هو كارل ماركس واضع نظرية محو الطبقات وتلميذه سعالين منفذ تلك النظرية الخاطئة بالقوة لا بالإقناع ، فالمساواة بين الطبقات إنما هى التضليل بعينه ، والدعوة إلى إهمال الأصول وإنكارها والتمسك بما حصل عليه الإنسان أو بما وصل إليه إنما هو الكذب الصراح

قد نجد شعراء ومجتهدين وعلماء وأغنياء وعظماء ومصلحين نبتوا نبتة شيطان من الطبقة الدنيا

لم تكن نفوس المدعوين مهيأة إلى محـــاربة روح الشر بالتسامى أو بالإغضاء عن هفوة أو هنة من مواطن فى حق وطنه ومواطنيه . وسرعان ما نهض أحدنا وهو وبع القامة ، عريض المنكبين ، مفتول العضل . يكاد أن يكون رأسه قائما على كتفيه لقصر فى عنقه ، ذو عينين صغيرتين تنبعث منهما نظرة صارمة ، حارب الألمان فى صفوف الفرنسيين ، وقاتل الفرنسيين فى كل ميدان من ميادين الثورة عليهم ، وقال بصوت بدأ هادئا ثم أخذت نبراته تشتد دون ارتفاع .

باسم الثورة لا باسم القانون أنقض حكم حضرة القاضى ، لقد خدعت من غير الخاضعين لقوانين هذا البلد الذى حمانى لأن مجلس وزرائه قرر اليوم إبعادى وسأكون قرب ظهر الغد فى سفينة تنقلنى إلى أوربا ، وإنه ليطيب لى أن أزيل الغم عن صدوركم وأعيد الراحة إلى نفوسكم ، بإصدار حكمى أنا على هذا الخادع النشاش والخاضعة الأثيم للطاعة لولى الأمر ولو كان من المستعمرين والخضوع لقوانين الذل والعبودية . والتفت صوب المنكوه « حصل أفندى » الذى كان قابعا فى مقعده لا يبدى له جبين ، ولا يحمر له وجه ولا يصفر وقال :

لقد كنت تسعى وتتجول وتتنقل من مكان إلى مكان آخر بقدمك هذه ، وإنى لأرى من العدل بل من الرحمة أن أعفيك من إتمام سعيك ، وإبطاء تجوالك بكسر قدمك هذه . وانقض عليه انقضاض الرجل الغاضب لوطنه وكرامة مروبته يلوى مفصل قدم المنكود ليا عنيفا

كان الرعديد يصرخ ويولول . لقد استجار بالله ، ورسله وأوليائه ، لقد حلفنا بأولادنا وأعراضنا أن ننتقم من بلائه

لقد كلت أيدينا ، وعجزنا على كثرتنا عن تخليص قدم المسكين من قبضة صديقنا المنتقم ، ولم يتركها إلا بعد أن خلع مفصلها

إن أنس لا أنس صاحب الدعوة ، وهو طبيب قتل افتيالا كيف سير بيته مستشفى وقد أقامنا على خدمة من ضلله الشيطان

لقد دار الزمان دورته ولا أحسب إلا أنه أتمها وهى على غير محورها الثابت . ومن سخرية القدر أن يصبح حصل أفندى نائبا عن الأمة بضطام حتى اليوم فى أحد مجالس نيابة دولة شفيقة

حبيب الزحلاوى

مختارات من الأدب الفرنسى

شعر ونثر

للاستاذ أحمد حسن الزيات بك

مجموعة من أروع القصص القصيرة وأبلغ القصائد الفريدة لصفوة من نوابغ كتاب فرنسا وشعرائها

وثمنه ٢٥ قرشا عدا أجرة البريد